رؤوسُ أقلامٍ... في رؤوسِ أعلام[1]

(٣)

أيامٌ مع أمير المحققين

١٣/ ١١/ ١٤٣٦هـ

عشـــنا خمســـة أيام في جامعتنا الفتيّة -جامعةِ القصيم- عرسًا علميًّا مميزًا، بقدوم المحقق الكبير، (أمير المحقّقين) -كما يصفه به بعضُ محبّيه- أ. د. بشار عوّاد معروف العبيدي، صاحب التحقيقات العلمية الشهيرة الرصينة، التي ارتبطت باســـمه ارتباطَ أســـماءِ مؤلفيها بها، كـ (تهذيب الكمال) للمزي، و(تاريخ بغداد)، وغيرهما.

قد يظنّ بعضُ القراء الكرام أن نفعَ لقاءِ هؤلاءِ الأعلامِ -الذين أفنوا أعمارَهـــم في البحث والتحقيق- مقتصرٌ على الفوائد العلمية فحســـب! بل في لقائهم من الفوائد المتعلقة بســـيرتهم البحثيـــة، وحياتهم العلمية،

(١) هذه المقالة هي الجزء الثالث من سلســـلة -غير مرتبة زمنيًّـــا- بدأتُ الحديثَ فيها عن شـــيخنا المحدث أ. د. أحمد معبد عبدالكريم، ثم عن فضيلة الشيخ المحدث أبي إسحاق الحويني -حفظهما الله-.

والصعوبـــات والعقبات التي واجهتهم؛ مـــا لا يمكن تحصيلُه في كتابٍ معـــاصرٍ، وله من الأثر المعنويِّ في نفوسِ الباحثين ما هو معلومٌ لكل مَن لقي الكبارَ في كل مجال.

ومَـــن الذي يُنكِـــرُ تأثيرَ مشـــاهدة القُدوات العلميـــة أو العملية في الإنســـان! ألسنا نجد في أنفســـنا أثرًا إذا لقي أحدُنا عابدًا أوّاهًا، أو باذلًا خفيًّا، أو ذا خُلقٍ عظيمٍ؟

لقد كانت لقاءات د. بشـــار عامرةً بالبحث والإفادة، خاصةً في مجاله الـــذي بزّ فيه كثيرًا مِن أشـــياخه، بَلْه أقرانه، وهو تحقيـــقُ كتب التراث، وضبطُ النصوص.

وقد منّ اللهُ عليّ بحضور أربعةٍ منها، لعلي أسجّل أهم المعالم التي أرى تدوينها في هذه العجالة، ما يفيد عمومَ القرّاء، دون الدخول في تفاصيل الفوائد، التي قد تُهم المختصين أكثر من غيرهم.

أولًا: تراءت لي هذه الجملة المشـــهورة: «من لا تكون له بداية مُحرِقة لا تكون له نهاية مشرقة»، وأنا أســـمع حديثَه عـــن بدايات طلبه للعلم، وما واجه من مشاق، بل ومِن تعرّضه لمحاولة الاغتيال مرات عدة! لكنه تجاوز ذلك كلَّه بفضل الله، ثم بعزيمة الرجال.

ثانيًا: ثمة شيءٌ لا تُخطئه أُذُنُ المســـتمع لأحاديث الدكتور بشار، وهو حبّه للعلم حبًّا بلغ مرحلةَ العشـــق والهيام، وهذا -بعد توفيق الله- أحدُ أهم أسباب ما بلغه من الإنتاج الغزير، ودقّته أيضًا.

سمعته يقول -بعد أن اســـتُكْثر عليه كل هذا الإنتاج وحده-: كتبتُ بأصبعي هذه مئة وخمسين ألف ١٥٠ ألف صفحة!

وســـمعته يقول: إن تســـعين في المئة من أعمالي العلمية كان بعد نيلي درجة الأستاذية (بروفسور)!

تأمّل هذه أخي القارئ الكريم، واعرِض هذه الكلمة على واقع أكثر الذين ينالون هذه الدرجة، الذين يتوقف إنتاجُهم، أو يَضعف بعد نيلها! ووالله لكأنما أرســـلَ هذه الرسالة لنفسي المقصّرة، أســـأل الله أن يعيني، ويوفقني لاغتنام ما بقي من عمري.

لقد مرّت العراقُ -بلد د. بشـــار- بأحوالٍ وأهوالٍ تشيب لها مفارقُ الولـــدان، واضطرته الأحـــوالُ إلى أن يفارق بلدَه لا عـــن اختيار -وما أصعـــب هذا على النفـــوس!- وأن يترك كثيرًا من أموالـــه وأمتعته التي اجتمعتْ له في عشراتِ السنين؛ لينجو بدينه وبنفسه، واستقرت به عصا الترحال في المملكة الأردنية الهاشـــمية، التـــي أكرمته بما يليق به وبعلمه، وبما يليق بأخلاق سلالة البيت النبوي الشريف، وهو في كل ذلك لا يترك التحقيق، ولا البحث، بل أخرج بعد أن جاوز الستين عشراتِ المجلدات المحقَّقة تحقيقًا علميًّا قويًّا، وعلى رأس تلك الكتب: تحقيقه لتاريخ بغداد.

وهـــو الآن -وقد قـــارب الثمانين- يعمـــل على تحقيـــق كتابين من الموســـوعات التي تَنوء بهـــا مجامع علميـــة: (التمهيد) لابـــن عبدالبر، و(المحلّى) لابن حـــزم، بارك الله فيه، وأعانه على إكـــمال هذين العملين المهمّين.

ثالثًـــا: حرصـــه على وقته، بـــل وبذلـــه الأوقات الطويلـــة في العلم والتحقيق.

لقد كان د. بشار أيامَ شبابه وقبل أن تتقدم به السنّ يُمضي قرابةَ ست عشرة ساعة في القراءة والتحقيق، وتصحيح الكتب والملازم، ومع تقدّم السـنّ نقصتْ حتى بلغت تسع سـاعات! وهذا شيءٌ نادرٌ في الباحثين الشباب؛ فكيف بمن هو في عشر الثمانين! ما شاء الله لا قوة إلا بالله!

وهذا الحرصُ الشديدُ على الوقت هو -بفضل الله- أحد أسباب هذا الإنتاج الغزير.

رابعًا: سُوق التحقيق كغيرها من الأسواق، فيها يتنافس المتنافسون، ومع طول باع هذا الرجل، وكثرةِ مَن يبيع، ويشـتري في هذا السوق، إلا أنه عفَّ اللسان، لم أقف له على سـبٍّ ولا شتمٍ، وهو إن قسا فإنما يقسو على العمل نفسه، مع البُعد عن تجريح الذوات.

بل سمعتُه مرات عدة -وهو يتحدث عن عمله في (المحلى)، و(جامع الترمذي)- يثني كثيرًا على الشـيخ المحقق أحمد شـاكر، ويعتذر له عن بعض ما وقع له من ملاحظات، مع انتقادِه له في منهجه في التحقيق.

وسـبحان الله! كم بين هذا المنهج وبين منهج بعضِ المحققين الذين يرون أنه لا يمكن أن يُثبت قوةَ تحقيقه إلا بنسف جهود مَن سبقه، والحطّ عليهم!

هـذه بعضُ المعالم التي أراها جديرةً بلفت النظرِ في سـيرة هذا العلَم الكبير، الذي أسأل الله تعالى أن يبارك في عمره، ويَنسأ في أَثَره، وأن يختم لنا وله بخير.